التناص القرآني في جدارية محمود درويش

أ.د صبّار نور الدين
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس

يتمثل موضوع هذه الدراسة في إعادة قراءة شعر محمود درويش ابتداء من النص الشعري ذاته في علاقته بالنصوص الدينية التوراة، الإنجيل، القرآن والانطلاق منها إلى فضاء النص وما يتشكل به من علاقات وتجسيد لرؤية الشاعر والكشف عن مصادر نسيجه الفكري ورصد التناص الديني عنده وما يحققه من قيم جمالية تسعى لطرح الرؤى الايديولوجية والجمالية للشاعر على امتداد مشروعة الشعري وعلاقته بالقضية الإنسانية أولا ثم بالقضية الفلسطينية .

أظهرت نتائج الدراسة العلاقة النصية بين نصوص محمود درويش الشعرية والنصوص السابقة عليها في اللغة خاصة النصوص الدينية التي وضعت بصماتها بوضوح في كينونة الشاعر لكونه مسلما (القرآن) ولكونه معايشاً للفكر اليهودى ورافضا للفكر الصهيوني لوجوده في فلسطين (التوراة) بالإضافة إلى العلاقة التي تكونت في ذهنه بين صلب المسيح / المخلص– الذي ينتمى لفلسطين هو أيضا وبين صلب الفلسطيني الحديث في أرضة المحتلة (الانجيل)، وقد أكد الشاعر بنصوصه الشعرية انه شاعر وجد في ظروف سياسية معينة استطاعت أن تضيف أبعادا جديدة لتجربته الشعرية وليس مجرد شاعر صنعته الظروف التحى نشا فيها.

التناص كفعل إلزامي بوعي أو بلا وعي الأديب يتطلب فعلا استقرائيا للكشف عن النص الأصلي أو فك النسيج النصي الجديد للكشف عن النص أو النصوص الغائبة والفاعلة فيه، وهي العملية التي عقّدت من مفهوم التناص، وجعلت من كشفها وتمييزها تعتمد على «ثقافة متلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح[1].

وقد قدمت الدراسات اللسانية واللسانية النفسية بعض النظريات المتحكمة في فعل إنتاج النص وفعل المشاركة التلقياتية، وكذلك تقنيات التناص التي نوردها من كتاب تحليل الخطاب الشعري–استاتيجيات التناص– للناقد محمد مفتاح[2]:

يتميز الدرس التناصّي بصفات مهمة، قادرة على سبر أغوار النصّ والتغلغل إلى مفاصله، وتعتبر "جدارية" :هي ديوان \ قصيدة للشاعر الفلسطيني محمود درويش يمثل تجربة جديرة بالتأمل والدراسة لما تحويه من غنى وتنوع في الظواهر الأدبية والفنية، تجسد (جدارية)بشكل عام صراعاً بين الموت والحياة في إشارات واضحة لذلك على مدار القصيدة، يعاني فيها الشاعر موت أمور كثيرة فمن موت اللغة إلى ضياع الهوية إلى عبث ولا جدوى، وتحدي وإصرار على المواجهة، القصيدة جمعت جوانب أدبية ودينية واجتماعية وفلسفية وسياسية بحيث ألقى فيها الشاعر جل همومه، أحيانا يلجأ إلى تصويرها وحين يشتد به الأسى يلجأ كثيراً إلى أسلوب التداعي الحر في بعض المقاطع، واستخدام الرمز والأسطورة[3] والقرآن الكريم .

تنفرد الثقافة العربية بظاهرة التناص القرآني، وتؤثر في حركة تشابك العلاقات التناصية فيها، فلا تعرف الثقافات الأخرى مثل هذا النص الأب، النص المثال.. النص المقدس، صحيح أن كل التمعات لها نصوصها المقدسة ولكن هذه النصوص لاتطرح

نفسها كنموذج أعلى للكمال والجمال اللغوي لأن للقرآن الكريم عند العرب والمسلمين قدسية عظيمة، لا تحتمل التهوين والوضاعة؛ بل الارتقاء والسمو، فقد عجزت ألسنة البشرية عن الإتيان بمثله.

ويقدم النص القرآني الكثير من الحلول لمشكلات لإنسان في مجالاته الحياتية، كيف لا؟ وهو الدستور الإلهي لأهل الأرض في كل مكان وزمان، لذلك كان له الأثر الواضح في الشعر العربي حديثه وقديمه..فقد عكف كثير من الشعراء على استلهامه والاقتباس منه في معالجة القضايا التي يشعرون إن توظيف النصوص الدينية – ولا سيما القرآنية – في الأدب يعد من أنجع الوسائل، وذلك لخاصية ذهنية في هذه النصوص تلتقي وطبيعة الأدب نفسه، مما يسعى الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره، فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينياً أو أدبياً.[4]

ديوان محمود درويش جدارية يتكون من قصيدة واحدة يضاف إليها مطولات أخرى مثلت علامات بارزة في تطوره الشعري، فالجدارية تتمحور حول تعامل درويش مع المرض لذا ظهر فيها تعامله مع النص القرآني ظاهرا جليا.

سأصير يوما فكرة لا سيف يحملها

إلى الأرض اليباب ولا كتاب

كأنها مطر على جبل تصدع من

تفتح عشبة[5]

هذا القول يحيلنا إلى النص القرآني (**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا تَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)[6].

ويحيلنا درويش وهو يخاطب الموت :

فيا موت انتظري ريثما انهي

تدابير الجنازة في الربيع الهش

حيث ولدت، حيث سامنع الخطباء

من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين

وعن صمود التين والزيتون في وجه

الزمان وجيشه[7]

إلى سورة (**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**)[8] مع الملاحظة أن درويش استبدل كلمة أمين بالحزين .

وهي إشارة دلالية موحيه تتصل بفلسطين، فالبلد الأمين في السياق القرآني هو مكة، بينما السياق الشعري للبلد الحزين هو فلسطين، يطالعنا نص الشاعر مفعم بالدلالة، يمتزج فيه التعبير عن الفكرة وظلالها بنص قرآني كريم،

يجسد حال المؤمن بربه، ووعده بالنصر المحقق من الله، ولكن الشاعر يطرح على المتلقي ذلك بأسلوب ملؤه التعجب والاستغراب والمفارقة الشعرية؛ ليحدث صدمة للمتلقي، والتنبه لحال العرب والمسلمين إلى ما وصلوا إليه من انتكاسات وهزائم عام1967 واغتصاب أرضهم وقبلة الإسلام الأولى .

ويقول درويش متناصا مع قوله تعالى (**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**).[9]

سأصير يوما فكرة لا سيف يحملها

إلى الأرض اليباب ولا كتاب

كأنها مطر على جبل تصدع من

تفتح عشبة

لا القوة انتصرت

ولا العدل الشريد[10]

فالشاعر أفاد من المشهد التصويري للآية، ثم اعتاد تشكيلها وفق إرادته، فجعل الجبل يتصدع من عشبة هشة، عكس الآية التي يتصدع منها الجبل من خشية الله وعظمته .

ويقول درويش :

كلما يممت وجهي شطر آلهتي

هنالك في بلاد الأرجوان أضاءني

قمر تطوقه عناة، عناة سيدة

الكناية في الحكاية لم تكن تبكي على

أحد،ولكن من مفاتنها بكت[11] .

يتناص الشاعر مع الآية (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة) فهو يوظف اللغة القرآنية للتعبير عن صورة فنية وظف فيها الآلهة في إشارة ضمنية لعدم تحقق أحلامه نحو وطنه ، والشاعر في استدعائه للنص القرآني، يريد إلقاء الضوء على حال الأمة، وما تعانيه من ضعف وهوان، فإن إحساسه بالقومية العربية جعلته ينتفض وينفجر على الأوضاع الاجتماعية والسياسية...، فكان ملاذه استدعاء هذا النص القرآني بما ينطوي عليه من قدرة خارقة في الإقناع و الحقيقة التي لا يرقى الشك إلى قداسته.

عندما نتحدث عن التناص الديني عند محمود درويش فنحن نتحدّث عن شخصية رسالية منفتحة عما هو واقع حولها من جهة، ومن جهة أخرى يرتقي بشعره لما حملته الأرض التاريخية من أديان يكاد يدين لها مسلمها ومسيحيها ويهوديها، فنجد ألفاظا كثيرة مستوحاة من الدين المسيحي و الديانة اليهودية (الصليب، أجراس الكنائس، المزامير) وجملا مسيحية معروفة (خبزي كفيف) ومن القرآن الكريم التين والزيتون و (أسماء إسلامية ،(محمد، فاطمة.دلية، هاجر).

إن استحضار الخطاب الديني في الشعر العربي الحديث يمنح النص الشعري مصداقية وتميّز اً ، انطلاقاً من مصداقية الخطاب القرآني، وقداسته وإعجازه، ولهذا لا غرابة في استلهام واقتباس كثير من النصوص الشعرية من القرآن الكريم على مستوى الألفاظ والعبارات أو المعاني الظاهرة أو الخفية أو الإشارات الدالة للموضوع الذي يود الشاعر إلقاء الضوء عليه.

ومن هنا فإنه عند دراسة هذا الملمح- لابد من عرض السطور الشعرية المتناصة مع الآيات القرآنية, وذكر أصول تلك الآيات في القرآن الكريم, والتماس دلالتها ووظيفتها في المتن الشعري لنكشف عن أن هذا الشاعر العظيم كيف يستدعي النصوص بأشكالها المتعددة الدينية، والتاريخية، والأسطورية، والأدبية؟ وكيف يجسد التفاعل الخالق بين الماضي والحاضر؟

يقتبس محمود درويش من آيات القرآن الكريم معجزة دين الإسلام، في دواوينه مباشرة تارة وغير مباشرة تارة أخري، لأنّه أدركّ أن القرآن الكريم كفن بلاغي معجز يثري لغته الشعرية ويجعل مفاهيم أشعاره أوثق وأقرب إلي إدراكّ الناس وأشد تأثيرا علي قلوبهم.

يستمد محمود درويش في جداريته مادته اللغوية من الأسطوري والديني ، وهي تختلف عن بقية شعره بناء ولهجة وتصورا لعملية قول الشعر ذاتها .وفيها اعتماد على القرآن الكريم جعل منه عنصرا مهما في توليد المعنى ، واعتماد الصورة الروحية الموحية التي تفتح النص على معان مختلفة وتفتحه للقراءات والتأويل .

الهوامش :

1. محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 131.
2. نفسه، ص ص 124/123.
3. محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري، ص 131.
4. صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م, ص 62.
5. محمود درويش، جدارية ، بيروت ، دار الريس للكتب والنشر ،ط1، 2000 ، ص 12.
6. القرآن الكريم : سورة الحشر، الآية رقم 21.
7. محمود درويش، جدارية، ص34+ نفسه : ص 12.
8. القرآن الكريم : سورة التين ، الآية 1-3.
9. القرآن الكريم : سورة الحشر، الآية 21.
10. محمود درويش، جدارية ، ص72.
11. نفسه، ص 72.